يوسف في القرآن الكريم والتوراة

د.زاهية راغب الدجاني

يوسف في القرآن الكريم والتوراة

د.زاهية راغب الدجاني

دار التقريب
بين المذاهب الإسلامية

شارع جان دارك - بناية الوهاد
تلفون: ٢/ ٣٥٠٧٢١
٣٤٥٤٦٠ - ٣٤٤٢٣٦
فاكس: ٠٧ ٥٢٢١ - ٠٠٣٥٧٩
تلكس: ELTOUP LE ٢٢٦٦١
ص.ب: ٨٣٧٥
برقياً: انكلسامس
بيروت - لبنان

الطبعة الاولى
١٤١٥هـ-١٩٩٤م

تصميم الغلاف: عباس مكي

بسم الله الرحمن الرحيم

بين طيات الكتاب

إن قصة يوسف، عليه السلام، كما جاءت في القرآن الكريم، تدور في اساسها حول محور العائلة، وتتناول العلاقات العائلية كنموذج للعلاقات الإنسانية الأوسع، وتبين بهذا الإطار، ما يكتنف هذه العلاقات من حسد وغيرة وطمع، ومن اجتراء على مشاعر القربى ومبادئ السلوك السليم. كما أنها تتضمن نوعا من « التمرد» على نظام الأبوية العائلية، ويتمثل هذا التمرد في تآمر الأخوة على الإبن المحبب إلى أبيه، وتحايلهم على أبيهم، وغشهم له، وكذبهم عليه، وهذا ما يحدّد السلطة الأبوية في واقع الحياة. لكن القصة تنتهي في تأكيد مجدد للولاء والصفاء العائليين لتبين أن التمرد على العائلة وعلى الأب جاء بأضرار وشرور لم تكن في الحسبان. بيد أن إعادة الوحدة العائلية تتحقق بفضل من الله تعالى، الذي اختار يوسف نبيا وصالحا وحلاّه بالأخلاق الحميدة، وجمّله بالتعالي عن الحقد والحسد وبالعفو عمن سبب له الأذى وقطع أوصال حياته، وبمبادلة الإساءة بالحسنى والإفاضة في هذه المبادلة. على أن ذلك يتم من خلال حوار عائلي يبين فيه يوسف باللطف وبالقسوة معاني الأخطاء والآثام التي ارتكبها اخوته ليأتي العفو مرتبطاً بهما. وبذلك، لا تضيع تلك المعاني في خضم النوايا الطيبة والعمل الصالح من جانب واحد.

ومن الملفت للنظر، أن هذا المحور العائلي يستمر حيث ينتقل يوسف من بيته - بيت أبيه وعائلته - إلى بيت سيد غريب عنه في بلد ليس بلده، وفي عالم غير عالمه. وكما أن الانتقال يتم في اطار جغرافي واجتماعي مختلف، فإنه يتم أيضا في مرحلة جديدة من مراحل حياته، اذ أنه انتقل الآن من الطفولة إلى الصبا والشباب واكتمال الجسم، وهذه مرحلة يرافقها تفتّح للعواطف والأشواق. وبينما كانت المرحلة السابقة من حياته العائلية بين اخوة له، وتحت مظلة أبيه، فإن المرحلة الحالية تشهد

أناساً غريبين عنه، كما تشهد أول لقاء له مع الجنس الآخر، المرأة. وهنا أيضا، وكما شهدنا في المرحلة الأولى، تتجه العلاقات في بادئ الأمر إلى الميل نحو الشهوة، غير أن الشهوة ما بين الرجل والمرأة هي ذات طبيعة مختلفة عن غيرها من الشهوات. وهنا نشهد بروز الجنس كعامل مهم من عوامل الحياة الانسانية. ويتبدّى التمرد نفسه الذي شهدناه في الاطار العائلي القديم على نظام العائلة، على السيد. والسيد هنا هو الزوج، والتمرد هنا هو على الحياة الزوجية نفسها، كما أنه يظهر كثورة عنيفة تكاد تجتاح يوسف نفسه، إلا أنه ينضبط تحت تأثير عاملين: العامل الأول هو مفهومه للعلاقات بين الرجل والمرأة، ذلك المفهوم الذي يستبعد الزنا والتحلل من قواعد العفة للرجل والمرأة سواء بسواء، اما العامل الثاني، فهو مفهوم الوفاء لسيد البيت الذي أكرمه واحسن معاملته، فوجب عليه أن يقابل العمل الطيب بمثله وان يمتنع عن أي اساءة أو أي أذى يلحق بهذا السيد، وقد يتحمل في سبيل ذلك الشيء الكثير. ويمكن القول إن هذه الحادثة ذات الطبيعة العائلية أيضا، كانت أول اختبار إلهي له على الطريق الشاق المؤدي إلى اكتمال تربيته وتأهيله الإنساني برعاية من الله عزّ وجل.

ويجب أن نذكر عند هذه النقطة، أن قصة يوسف تؤكد مبدأ الرفض القرآني القاطع للدعوة إلى الزنا. فالقرآن الكريم يوضح من ناحية، ما يعتبره الانسان شهوة حين يورد «ولقد همّت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه» (٢٤، سورة «يوسف١٢»)، ولكنه يضع الفريضة الإلهية في العفة فوق كل الشهوات، ويلزم الناس جميعا بها. إن قصة يوسف ليست قصة انسياق وراء المرأة كما يظن بعض أعداء الاسلام، بل قصة تعال وتسام على ذلك، بحكمة إلهية «برهان ربه». وورود كلمة برهان في الكلام المنزل لوصف هذه الحكمة يدل على أن الأمر امتحان للانسان، وأن على الإنسان ان يُثبت بالبرهان قدرته على اجتياز هذا الامتحان. وهذا أمر مخالف تماما، لما تقوم عليه الثقافة الغربية الحديثة، التي أصبحت تبيح العلاقات الجنسية خارج الزواج، ولا ترى فيها ضيرا اخلاقيا أو قانونيا أو أدبيا أو معنويا.

وعدا عن خوض قصة يوسف القرآنية في مبادئ اخلاقية ملزمة كما هو مبين

اعلاه، فقد تطرقت إلى مسألة العلاقات الاجتماعية الأوسع خارج النطاق العائلي. وفي هذا الصدد، أبرزت بأن أول احتكاك اجتماعي هو الاحتكاك الذي تم بين يوسف وصاحبه في السجن، وإن هذا الاحتكاك هو الذي هيأ له الفرصة الأولى لاستخدام علمه السماوي في تأويل الاحلام.

وينتهي هذا التماس المجتمعي بدعوة فرعون ليوسف، بوصفه خبيرا في تفسير الرؤى، مما يتيح له الفرصة لإقامة علاقة مع صاحب السلطة العليا (أي فرعون)، غير أن القرآن الكريم لا يتحدث عن كيفية استثماره لهذه العلاقة الجديدة. وكل ما يشير إليه، هو أنه وضع مواهبه بتصرف صاحب السلطة لكنه استثمرها في خدمة بسطاء الناس، وفي التخفيف عنهم، وتوفير حاجاتهم الغذائية عن طريق التجارة.

وسوف تشكل تلك المواضيع وغيرها مادة للبحث في هذه الدراسة عن قصة يوسف القرآنية، التي تتبع بدراسة عن القصة نفسها الواردة بالتوراة.

د. زاهية راغب الدجاني

ربيع الثاني، ١٤١٣ هـ.

اكتوبر، ١٩٩٢ م.

المقدمة

يقول الله تعالى في كتابه العزيز:

«إنّا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون. نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين» (٢، ٣، سورة « يوسف»)

إن القرآن الكريم الذي انزل باللغة العربية على الرسول محمد (ﷺ)، قدم للانسانية قصة يوسف، عليه السلام، بهذه اللغة الرائعة. بيد أن القصة ذاتها عرضت في وقت سابق بالتوراة، وكانت باللغة العبرية وليست بالعربية. وعليه، فما أنزله الله تعالى من وحي على رسوله محمد (ﷺ) بصدد هذه القصة، كان ككل ما جاء في القرآن الكريم، وليس نقلا عن القصة الموجودة في التوراة. ومعنى ذلك، أن الله، عزّ وجل، قد ضمن القصة، كما جاءت في القرآن، المعاني والتفاسير التي لم تكن واضحة في الاصل التوراتي، وأن الله، عزّ وجل، قد أوصلها بنص جديد ضمن معانٍ جديدة. فلما كان متوقعا من المشركين الذين خالطوا اليهود ان يقولوا للرسول محمد (ﷺ)، إنه نقلها عن التوراة، فإن آية «إنّا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون» تدحض هذا القول، لتؤكد أن ما انزل على الرسول الكريم هو الوحي الذي يعطي المعنى الأزلي للقصة، والذي لا يوجد بالنص التوراتي. وبهذا الإطار، فالوحي اذن، هو المعنى وليس التسلسل في رواية الأحداث بشخصياتها وأماكنها، فالشخصيات الأساسية في القصة هي واحدة في القرآن والتوراة بوجه عام، لكن في حين أن الأحداث بشخصياتها واماكنها قد قدمت في التوراة كحكاية عادية من الحياة يمكن ان تحدث دائما، فقد خرجت عن هذا الاطار في القرآن، فالقصة القرآنية تقدم مفاهيم ازلية بصدد العلاقات العائلية والاجتماعية واثرها في حياة الأفراد، إضافة إلى مبادئ كثيرة اخرى تهم الجماعة الانسانية، ككل، في أزمنة وأمكنة عديدة.

والجدير بالذكر هنا، أن كثيرا من الاسرائيليات قد دخلت إلى التراث الإسلامي، وخصوصاً في اطار القصص القرآني، الذي لا مثيل له في التوراة، فقد اتخذ بعض المسلمين التوراة مصدرا لإكمال «فراغات» موجودة في القصة القرآنية. لكن الموقف الصحيح هو وجوب اعتبار تلك الفراغات مقصودة، وأن القصة كما جاءت في القرآن، مكتملة وغير منقوصة، مع أن المحاولة لاكمال الفراغات قد لا تتماشى في كثير من الأحيان مع المعاني الواردة في السياق القصصي القرآني، وتؤدي بالنتيجة إلى إعطاء مبادئ معاكسة.

فعلى سبيل المثال، عندما تحدثت القصة القرآنية عن ممارسة يوسف السلطة في مصر كمسؤول عن خزائن البلاد ـ ما قبل حدوث القحط وما بعده ـ فقد كانت توجه نحو ضرورة ممارسة السلطة بالحكمة والعلم، والتعقل، والعدل، والحزم، والرحمة وتضع يوسف كمثل أعلى في خدمة بسطاء الناس، والتخفيف عنهم، وتوفير ما يحتاجونه من طعام، لكن دون الخوض «بتفاصيل» عن اسلوب يوسف بالتعامل المالي مع هؤلاء الناس في وقت المجاعة. والمهم بالنسبة للقصة القرآنية هو المعنى الأزلي، والمعنى القرآني واضح بهذا الخصوص، لكن يبدو أن بعض المفسرين ظنوا أن إحضار تفصيلات مستوحاة، في كثير من جوانبها، من التوراة، بصدد تعامل يوسف مع الناس ابان حاجتهم القصوى إلى المعونة، قد يملأ فراغا في القصة القرآنية، فكانت النتيجة الإتيان بمعانٍ مخالفة للمضمون القرآني. ولإعطاء دليل على ذلك، نقرأ الفقرة التالية التي وردت في «كتاب مجموعة من التفاسير»:

> ... فلما دخلت سنين القحط كان أول من أصابه الجوع الملك... فنادى يا يوسف الجوع الجوع فقال يوسف هذا أول أوان القحط... فجعل أهل مصر يبتاعون الطعام من يوسف فباعهم في السنة الأولى بالنقود حتى لم يبق بمصر درهم ولا دينار الا أخذه منهم، وباعهم في السنة الثانية بالحلى والجواهر حتى لم يبق بمصر في أيدي الناس منها شيء، وباعهم في السنة الثالثة بالدواب

والمواشي والأنعام حتى لم يبق دابة ولا ماشية الا احتوى عليها كلها، وباعهم في السنة الرابعة بالعبيد والجواري حتى لم يبق بأيدي الناس عبد ولا أمة، وباعهم في السنة الخامسة بالضياع والعقار حتى أتى عليها كلها، وباعهم في السنة السادسة بأولادهم حتى استرقهم، وباعهم في السنة السابعة برقابهم حتى لم يبق بمصر حر ولا حرة الا ملكه فصاروا جميعهم عبيدا ليوسف.... (١)

إن الفقرة لم تحتوِ على المعاني التي تضمنتها القصة القرآنية عن عدل يوسف ورحمته، بل تجاوزتها، حتى أصبحت عبارة عن صورة فظة لواقع ممارسة السلطة دون التفات منه إلى الشعب ومصالحه، ودون رأفة من جانبه بالانسان الكادح. لذلك يجب أن نؤكد هنا، أنه كان عكس ذلك تماما، فالقصة القرآنية تبين أن حكم يوسف جاء للقضاء على الظلم الاجتماعي الذي كان ساريا بمصر، والذي ذاق مرارته حين زج به في السجن لبضع سنوات بتهمة زور، فالذي يُظلم - بكل علمه السماوي وحكمته وتعقله - لا يَظلم، فكيف له اذن، ان يفعل ذلك وهو يتولى منصب خزائن البلاد، والناس بحاجة ماسة إلى عدله ورأفته بهم؟ وكفى ان نقرأ الآيتين الكريمتين التاليتين لندرك مدى عدل يوسف المرتبط بالعلم والصدق:

«قال اجعلني على خزائن الارض إني حفيظ عليم.
وكذلك مكّنا ليوسف في الارض يتبوأ منها حيث يشاء
نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين»
(٥٥، ٥٦ سورة «يوسف»)

إن كلمة «حفيظ» هنا، تشير إلى تعهد من جانب يوسف للقيام بواجباته كمسؤول عن خزائن مصر بكل أمانة وصدق. ومن جانب آخر، فكلمة «عليم» تشير إلى أن تعهده هذا قائم على علم ومعرفة بحسن التدبير، من حيث تخزين الغلة الفائضة في سنوات الخصب، لسنوات القحط القادمة إلى مصر. وتجدر الاشارة

هنا، إلى أن الشخص الأمين الصادق في عمله، لا يمكن إلا ان يكون عادلا في تصريف الأمور. كما أن الشخص المخلص والعالم بحقائق الأشياء وبواطنها، لا يمكن إلا ان يكون عادلا أيضا، فالعدل إذن، مرتبط بالأمانة والصدق والعلم الصحيح. هذه التركيبة، بحد ذاتها، تدعو من يتحلى بها إلى حفظ حقوق الغير، وعدم استغلالهم، بأخذ مالهم أو مواشيهم أو أرضهم ثم استعبادهم بسبب الظرف التاريخي الصعب. وبهذا كله نرى أن إكمال الفراغ في قصة يوسف القرآنية، بالرجوع إلى بعض المبادئ التوراتية، قد أدى فعلا إلى نتيجة عكسية، اما بالنسبة لموضوع استثمار مواهب يوسف وعلمه في خدمة الشعب، بعدل ورحمة (راجع الفصل الثامن، التاسع والخاتمة).

ويجب ان نضيف هنا، أن مسألة إكمال بعض الفراغات في القصة القرآنية لم تقتصر على الأخذ من التوراة من قبل بعض المفسرين المسلمين، بل خضعت احيانا، لخرافات ادخلت على الدين من قِبل آخرين منهم، بحيث تعارضت كل المعارضة مع مبدأ «العقلانية» في الإسلام. وبهذا، فقد تسبب إدخالها في توجيه الانتباه نحو أمور جانبية، لا جدوى منها، بدلا من التوجيه نحو الجوهر. فمثلا، لقد اغرق بعض المفسرين في إحضار حكايات خيالية مفادها، أن يوسف قد تزوج من امرأة العزيز - التي كانت قد راودته عن نفسها في وقت ما - بعد خروجه من السجن. ولا بأس ان نحضر بعضاً منها الآن، كما عرضت في كتاب «الدر المنثور في التفسير المأثور» لجلال الدين السيوطي:

> .... أن أطيفر (العزيز) هلك في تلك الليالي وأن الملك الريان زوج يوسف عليه السلام امرأته راعيل فقال لها حين ادخلت عليه أليس هذا خير مما كنت تريدين فقالت أيها الصديق لا تلمني فإني كنت امرأة كما ترى حسناء... وكان صاحبي لا يأتي النساء وكنت كما جعلك الله في حسنك وهيئتك فغلبتني نفسي على ما رأيت فيزعمون أنه وجدها عذراء فأصابها فولدت له

رجلين... (وقيل أيضا) تعرضت امرأة العزيز ليوسف عليه السلام في الطريق حتى مرّ بها فقالت الحمد لله الذي جعل الملوك بمعصيته عبيدا أو جعل العبيد بطاعته ملوكا. فعرفها فتزوجها فوجدها بكرا وكان صاحبها من قبل لا يأتي النساء.... (٢)

إن قصة يوسف القرآنية لا تحتوي على أي اشارة بصدد زواج يوسف من امرأة العزيز بعد سجنه لبضع سنوات. فالقرآن لا يقدم قصة حب تنتهي بالزواج بعد متاعب، كما هو الحال في كثير من القصص الصادرة عن الأدباء وغيرهم، لكنه يعرض مشكلة خروج صنف من النساء (امرأة العزيز على الأخص) عن كل قواعد الفضيلة بسبب سيطرة السلائق الحيوانية عليهن. وعليه، يبين أثر ذلك في فقدانهن لحيائهن وكرامتهن، ومن ثم عدم تورعهن عن اللجوء لأي كيد يصل بهن إلى تحقيق رغباتهن في الشهوة. وبناء على ذلك، قررت القصة الحقائق التالية: أولا، إن الحب شيء غير الجنس، ثانيا، إن إباحية الجنس مرفوضة بشكل قطعي في الإسلام، ثالثا، إن هنالك قواعد أخلاقية تلزم الناس في تعاملهم، أهمها مبادلة الجميل بالجميل، وعدم التعدي على حرمات الصديق. إذن، فالهدف من الحكاية «توجيهي» بكل معنى الكلمة، ويجب أن نذكر هنا، أن قصة يوسف القرآنية قد عنيت بإبراز جمال العلو الروحي والأخلاقي (يوسف هنا) مقابل قبح الإنحدار بالنفس البشرية عند تحكم السلائق الحيوانية فيها (امرأة العزيز). على أنه بالا تمام بزاوية السمو الروحي، تطرقت تلك القصة إلى موضوع «مجاهدة» النفس لتحصينها ضد الإغراء، ومثال على ذلك، فقد بينت أنه، عندما تكاثر إغراء النساء من حول يوسف، وهو صامد يرفض أي دعوة لا اخلاقية من جانب امرأة العزيز، هددته بوضعه في السجن، فتقبل الفكرة، على الرغم من علمه بقسوة حياة السجن وقيودها التي هانت أمام عينيه، مقابل قيود الميل للمرأة، والاستسلام للهوى، مما يبين بشاعة الرضوخ للشهوة وعواقبها في المجال الروحي:

«قال رب السجن احب إليّ مما يدعونني إليه والا
تصرف عني كيدهن اصب إليهن وأكن من الجاهلين»
(٣٣، سورة «يوسف»)

وبالتوكل على الله تعالى، دخل يوسف السجن وقد اشاع العزيز (صاحب السلطة) في البلاد، بأن وضعه في السجن كان نتيجة مراودته لامرأته. وبهذا تجسد الظلم في أكبر مظاهره، فأحدث انقلاباً بالموازين، بريء اتهم زورا وبهتانا وسجن، وامرأة مذنبة بقيت تصول وتجول في المجتمع. ولكن على الرغم من معاني الظلم هذه، فإن تقبل يوسف لفكرة السجن من منطلق الظروف المحيطة به وقتئذ، يدل على قوة ارادة وسعي نحو نيل الجزاء الحسن بتأييد من الله عز وجل، على أن ذلك يؤكد بدوره أن مسؤولية الاعمال تقع على عاتق الانسان في المجال الروحي. ومن هذه الزاوية، نرى أن قصة يوسف القرآنية دخلت موضوع «القضاء والقدر» مبينة أنه اذا عزم الانسان على امر خيّر، ثم توكل على الله تعالى، بلغ غايته في الفوز والنجاح بفضل من رب العالمين. فالله بجلاله قد مكن يوسف في الأرض بعد صبر ومعاناة وطول انتظار في السجن. لكن بالمقابل، تؤكد القصة القرآنية على أن ما يصيب الانسان من مكروه فبما كسبت يداه، فقد بيّن السياق القصصي أن الايام دارت على امرأة العزيز، وامتثلت، بطلب من يوسف، للمحاكمة من قبل فرعون، لإظهار براءته أمام الجميع، واضطرت بالنتيجة وفي جلسة مهينة لها، إلى الاعتراف بما فعلته. وبإبراز هذه الحقائق بالنسبة لمبدأ المسؤولية الفردية، فالقصة تقرر أن الخير كله من عند الله عز وجل، في حين أن الشر والضلال من عمل الانسان الذي ينصت إلى الوساوس الشيطانية. وطبيعي، عندما تتحدث القصة القرآنية عن الخير والشر، ان تتطرق إلى موضوع «الابتلاء» وعلاقته بخلق الانسان. فالله تعالى قد خلق الموت والحياة لكي يبتلي الناس، ومن ثم يجازيهم بموجب أعمالهم يوم الحساب. فإذا عصوا الله تعالى، فعقابهم شديد، لكن لو التزموا بالبر والتقوى والطاعة له وحده، فسوف ينالون الجزاء الحسن في الآخرة، لأن الحياة الاخرى هي دار البقاء.

من كل ما تقدم، نرى أن قصة يوسف القرآنية تحوي في ثناياها كثيراً من لبادئ الروحية والأخلاقية والاجتماعية والسياسية والنفسية، مع العلم أن كل هذه لبادئ ترسم الطريق لنيل السعادة المرجوة. وتجدر الإشارة هنا، إلى أن التكامل فكري يشكل احد أهم العوامل الرئيسية، في إعطاء ميزة خاصة لتلك القصة بين قصص القرآنية الاخرى. ومن السمات الخاصة بقصة يوسف القرآنية، افتتاحها رؤيا تنبئ بعلو مستقبلي واسع المدى ليوسف، ثم اختتامها بتحقيق الرؤيا في جال الواقع البشري، مع اشتمالها على احداث كثيرة ما بين البداية والنهاية.. عضها عاصف وأليم وموجع بالنسبة ليوسف، وبعضها الآخر خيّر وباعث على لسلام والاستقرار له.. بالنتيجة هدوء بعد عواصف لا يتحملها إلا اولو العزم شدتها وهولها. وبهذا الإطار الذي يحمل مقدمة وأحداثاً كثيرة في الوسط ثم خاتمة، نرى أن القصة اختصت بتتبع كليّ لحياة يوسف، جاء وصفه كالآتي من قبل سيد قطب في كتابه «في ظلال القرآن»:

> إن القصة تعرض شخصية يوسف ـ عليه السلام ـ وهي الشخصية الرئيسية في القصة ـ عرضا كاملا في كل مجالات حياتها، بكل جوانب هذه الحياة، وبكل استجابات هذه الشخصية في هذه الجوانب وفي تلك الشخصية... وهي ابتلاءات متنوعة في طبيعتها وفي اتجاهاتها.. ابتلاءات الشدة وابتلاءات الرخاء، وابتلاءات الفتنة بالشهوة، والفتنة بالسلطان. وابتلاءات الفتنة بالانفعالات والمشاعر البشرية تجاه شتى المواقف وشتى الشخصيات.. ويخرج العبد الصالح من هذه الابتلاءات والفتن كلها نقيا خالصا....(٣)

وعدا عن يوسف، فقد ركزت القصة على شخصيات قريبة منه بحكم النسب، واخرى محيطة به. وطبعا،أولى هذه الشخصيات والده يعقوب عليه السلام، الذي أبرزته القصة في بدايتها الأب الحنون العطوف المحب ليوسف، الخائف عليه من كيد

اخوته له، وفي نهايتها الأب الذي عانى معاناة شديدة بسبب ضياع ابنه يوسف، لدرجة فقدانه أو شبه فقدانه بصره. بيد أنه مع عظم الخطب مما جرى له، فقد رُد بصره بالنتيجة، وردت إليه القوة والحياة عندما وضع قميص يوسف على وجهه. إذن، ومثل يوسف، فقد حصل الأب، ثانية، على الاستقرار بعد عواصف هوجاء في بيته وحياته.

ومن الشخصيات الذين تجمعهم صلة الدم بيوسف، أخ له من أمه وأبيه، ثم اخوة عشرة له من أبيه، وهؤلاء الاخوة من الأب يقفون كنماذج للحاسدين، الذين دفع بهم بغضهم لأخيهم بتدبير مكيدة له، ادت في البداية، إلى رميه في قاع البئر. ولكن مع مرور الزمن فقد تابوا واصلحوا، وتغيرت الصورة عنهم بحكم تغير الظروف بنجاة يوسف ثم بعلوٍ كبير له، ولشعورهم بالذنب الذي اقترفوه ضد أخيهم. وفيما عدا ذلك، فهناك شخصيات اخرى في القصة تتضمن العزيز وزوجته، نسوة المدينة، فرعون، صاحب السقاية ثم صاحب الطعام لفرعون. وقد تحدثنا بما فيه الكفاية عن هؤلاء في المتن. (راجع الفصل الثاني، الثالث، الرابع، الخامس، والسادس).

بناء على كل ما تقدم، نرى أن قصة يوسف غنية بتقديم أنواع من الشخصيات، التي تقف كنماذج متعددة لأبناء البشر، الذين يوجد بينهم الخيِّر الذي يُحتذى به، والشرير الذي يُتعظ منه. إن هذا الثراء في مجال الشخصيات في القصة، إلى جانب المبادئ الأزلية الكامنة وراء تلك الشخصيات، التي تحدثنا عنها سابقا، إضافة إلى الأداء الفني بها كما سيرى القارئ فيما بعد، أضاف الكثير إلى المعرفة الانسانية مثل: الأدب العربي، علم النفس، علم الاجتماع، علم السياسة، علم الحضارة، وعلم الأخلاق. إن كل هذا الثراء الذي تحمله تلك القصة في طياتها يشكل دليلا دامغا على الإعجاز القرآني من حيث المعنى والاسلوب. وهذا امر هام للغاية، لأن إثبات الإعجاز القرآني يمثل الطريق الأساسي لإثبات صحة أو صدق الوحي، علما، أن قصة يوسف ركزت على هذا الموضوع الهامّ للغاية، في بدايتها وفي نهايتها، من خلال الآيات القرآنية التالية:

«نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين» (٣، سورة «يوسف»)

«ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم اذا اجمعوا امرهم وهم يمكرون، وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين» (١٠٢، ١٠٣، سورة «يوسف»)

ومن الجدير بالذكر، عند هذه النقطة، أنه في الوقت الذي تسخّر فيه أقلام كثيرة معادية للاسلام «للتشكيك» بالقرآن الكريم، من خلال نفي صحة الوحي عنه، تساهم هذه الدراسة في دحض تلك الأقوال بالدليل والبرهان والحجة الدامغة. هناك في عالم الغرب اصرار على ما يطلق عليه احيانا مصطلح «التفتيش عن عدو» باعتبار أن مثل هذا التفتيش هو وسيلة لتعميق الوحدة للجانب الذي ينازل عدوا. وبهذا المفهوم، فقد دخل الغربيون إلى العالم الإسلامي من خلال ثورة مصطفى كمال أتاتورك المعادية للإسلام بعقيدته القرآنية. وقد يكون التفتيش المستقبلي في مجالات متشابهة أو متعمقة كتجربة مصطفى كمال، والتمهيدات واضحة من خلال الدعوة لتعطيل القرآن الكريم. ومن هنا، نأمل ان تساهم دراستنا الحالية في حماية القرآن من التعطيل، ومن ثم حماية العالم الإسلامي من التفكك والانهيار، والذوبان في الاتجاهات العلمانية التي ذهب إليها مصطفى كمال.

تحتوي هذه الدراسة على احد عشر فصلا، إضافة إلى المقدمة والخاتمة، تغطّي تسعة فصول، منها قصة يوسف القرآنية، أما الفصلان الاخيران، فيغطّيان القصة التوراتية من حيث التعريف، ومن حيث اظهار مواطن الشبه والاختلاف بين تلك القصة، وبين القصة القرآنية.

وفي الوقت نفسه، تعنى الخاتمة أيضا، بإتمام المقارنة بين القصتين. وفيما يتعلق بالمصادر، فدراستنا الحالية تستقي معلومات من كثير من المصادر القديمة والحديثة في حقل التفسير القرآني وغيره. كما تعتمد على الاجتهاد الذاتي في كثير

من أجزائها، وتعنى عناية خاصة بإبراز أزلية الأفكار القرآنية الواردة في القصة، مؤكدة صلاحية تلك الأفكار لكل زمان ومكان.

فعسى أن يوفقنا الله تعالى في سعينا هذا.

الهوامش

١ ـ البيضاوي، والنسفي والخازن وابن عباس، **كتاب مجموعة من التفاسير** (بيروت: دار احياء التراث العربي، لا. ت.)، ص ص. ٤٢٤ ـ ٤٢٥.

٢ ـ جلال الدين السيوطي، **الدر المنثور في التفسير المأثور** (بيروت: دار المعرفة، لا. ت.)، ص. ٢٥.

اضافة إلى ما تقدم ذكره عن مسألة زواج يوسف من امرأة العزيز، فقد ورد ما يلي:

> (قيل) اصابت امرأة العزيز بزجاجة فقيل لها لو أتيت يوسف بن يعقوب فسألتيه فاستشارت الناس في ذلك فقالوا لا تفعلي فإنا نخاف عليك قالت كلا إني لا أخاف ممن يخاف الله فدخلت عليه فرأته في ملكه فقالت الحمد لله الذي جعل العبيد ملوكا بطاعته ثم نظرت إلى نفسها فقالت الحمد لله الذي جعل الملوك عبيدا بمعصيته فقضى لها جميع حوائجها ثم تزوجها فوجدها بكرا فقال لها أليس هذا أجمل مما أردت قالت يا نبي الله إني ابتليت فيك بأربع كنتَ أجمل الناس كلهم وكنتُ أنا أجمل أهل زماني وكنت بكرا وكان زوجي غنياً....

المصدر نفسه، ص. ٢٥.

٣ ـ سيد قطب، **في ظلال القرآن**، المجلد ٤ (القاهرة: دار الشروق، ١٩٧٩)، ص ص. ١٩٥١ ـ ١٩٥٢.